تأييد لاقتراح « الرسالة »

للأســـتاذ على الطنطاوى

ما تفتأ الأفكار تحمل وتلد ، وما تنى المطابع تتلقى الولائد وتلفها بالثياب ، وتخرجها للناس كتباً ، فلا يدرى القارئ من كثرتها ماذا يقرأ ، ويحار المرء من تعددها ماذا يختار . ولكن العبقرى فى الكتب كالعبقرىّ فى الناس ، لا تراه الدنيا إلا مرة واحدة فى الدهر الطويل ، ولا يكون إلا واحداً فى ملايين . أخلص السابقين من البواقر فى الأمم كلها تجدهم قد جمعهم لقلتهم سجل واحد ، وضمت أسماءهم صحيفة ، ثم اذكر كم من ملايين البشر عاشوا معهم ، وتنفسوا الهواء الذى كانوا يتنفسونه ، وأكلوا من الطعام الذى كانوا يأكلونه ، ثم طوتهم الأيام ، ونسيهم الناس ، فكأنهم ماولدوا ولاعاشوا ، بل ربما كان فى هؤلاء المنسيين بحق ، المجهولين من كانت له دنيا أعرض من دنيا أولئك العبقريين ، وكانوا يتمنون الأقل منها فلا يصلون إليه ، وكانت لهم منزلة وكان لهم سلطان ، ولكن الزمان محّص الحقائق ، ومازالأباطيل ، فإذا ذلك السلطان زبد يذهب جفاء ، وإذا العبقرية تمكث فى الأرض لأنها تنفع الناس . وكذلك الكتب ، فربّ كتاب يطبّل له ويزمر ، ويقام له ويقعد ، وآخر لا يدرى به أحد ، يبطل الزمان الأول ، ويبقى الثانى خالداً . ولقد قرأت فى بعض ما قرأت من شعر الإفرنج كلمة أحسبها لتيوفيل غوتييه يقول فيها مخاطباً الملك العظيم لويس الرابع عشر : « لقد نسى التاريخ اللآلئ التى كانت فى تاجك أيها الملك ، ولكنه لا يزال يذكر الرقع التى كانت فى حذاء كورنيي » . كما نسى التاريخ ألوف الأمراء والملوك إلا ما خلده شاعر حين أمر اسمه على لسانه فى قصيدة من قصائده .

هؤلاء الرجال العبقريون ، وهذه الكتب العبقريات ، التى لا تقوى حدود البلدان ، ولا فوارق اللسان ، على إبطال فتنتها ، وإذهاب روعتها ، هذه الكتب (قدر مشترك) بين أبناء الشعوب المتمدنة كلها ، ليست لشعب ولاجيل ، لأنها حديث القلوب فهى لكل ذى قلب ، ولغة القلوب واحدة وإن اختلفت الألسنة وتعددت البلدان ، فما يليق بأمة لها شعور وكرامة وعقل ، أن تجهل هذه الكتب ولا هؤلاء الرجال .

« • »

أكتب هذا تعليقاً على مقالة الأستاذ الزيات فى العدد الماضى من الرسالة . وإذا كتب الأستاذ فى موضوع لم يدع فيه ركناً يعرض له بالوصف مثلى ، لأنه يوفى فيه على الغاية ، ويبلغ فى الإجادة فيه النهاية ، وما علقت مستدركا بل معيداً ومرداداً ، وليكون لى فى هذه الدعوة المباركة نصيب .

ولقد عادت بى مقالة الأستاذ إلى أيامى الخوالى حين قرأت قصة (رفائيل) أول مرة ، بإذن من أستاذنا شيخ أدباء الشام سليم الجندى ، وكان يحرم علينا أن نلمّ بشىء من الأدب الحديث أو ننظر فى جريدة من الجرائد ، قبل أن نتمكن من الأدب القديم ، ونألف الصياغة العربية ، وتستقيم ملكاتنا على طريق البلاغة السوىّ خشية أن تدخل جراثيم العجمة إلى أسلوبنا ، وأن يفشو الضعف فى بياننا ، فلما سألته عن قصة رفائيل غداة صدورها هل أقرؤها ؟ نظر فيها ثم أذن لى بقراءتها لأنه رآها بليغة الأسلوب ، صافية الديباجة ، سليمة اللغة ، سامية البيان ، فكانت أول ما قرأت من الأدب الحديث بعد (النظرات) ولاوالله لا أستطيع أن أصف أثرها فى نفسى ولا فى خيالى ولا فى قلمى ، ولا أملك حتى الإلمام بذلك إلماماً ، لأنه شىء فوق الوصف وإنما أعترف أنها أحد المصنفات القلائل التى كانت غذاء أدبى من الكتب الجديدة ، بعد أن غذيته بأمهات كتب الأدب القديم . وقرأت (آلام فرتر) فكان لها مثل ذلك الأثر ، ثم افتقدت هذا اللون من الأدب فلم أجده ؛ ثم وجدت شبهه فى مثل (عطيل) مطران و (مرجريت) زكى و (فاوست) عوض وإن كانت هذه من قماش وتلك من قماش ، وإن اختلف النسج وتغيرت الديباجة ، وأمثال (تأبين فولتير) التى نقلها (المنفلوطى) إلى العربية بقلم أحسب لو أن (هوغو) كان عربياً ما كتبها بأبلغ منه ؛ كما أن لامارتين لم يكن ليكتب قصته ولا جوت كتابه ، خيراً مما كتبهما

الزيات ولو خلقا عربيين من أبين العرب وإني حين أقرأ اليوم هذه الروائع من أدب الغرب مترجمات في (روايات الجيب) مثلا أكاد أخرج من ثيابي غيظاً وغضباً لهذه المعاني الكريمات تجيء في هذه الكلمات ، وأسفاً على هذه العرائس الفاتنات تخرج في هذه الثياب الأخلاق الباليات . وأفكر لو أن الله قيض لقصة (ذهب مع الريح) مثلا أو (الفندق الكبير) أو (الأم) وأمثالها الكثيرات من عبقريات القصص العالمية التي ترجمها كتاب روايات الجيب ، ونشكرهم على كل حال على حسن اختيارها ، وبذل الجهد فيها ؛ إذ لم يدخروا في التجويد وسعاً ؛ لكن البلاغة درجات ، والكتاب طبقات ؛ لو أن الله قيض لها قلماً لدناً قوياً ، لا يضعف فينكسر ولا يقوى فيؤذي ، فترجمت بأسلوب عذب بليغ ، لا يصح من غير جمال فيجف ويجمد ، ولا يجمل من غير صحة فيميع ويسيل ، لكان منها لهذا النشء مدرسة ، الله وحده يعلم كم كانت تخرج لهذه الأمة من كتاب . وليست العبرة في الترجمة بنقل المعنى المجمل للقصة بل بنقل التفاصيل الفنية الدقيقة والصناعة الناعمة ، وطريقة عرض الفكرة ، وأسلوب تصوير المشهد . ولو أن المعنى المجمل هو المقصود للخصت قصة يوسف مثلا في كلمات وضاع إعجاز السورة وجمالها الإلهي ، ولكانت كل قصص الحب في الأدب متشابهة لا تخرج عن أن رجلا أحب امرأة حباً عاطفياً أو جسمياً ، فوصل إليها أو حيل بينه وبينها ؛ فهذه أنواع أربعة للقصص الغرامية ينشأ منها أربع قصص فقط ويكون الباقي كله لغوا . مع أن في كل قصة جواً خاصاً بها ودنيا لها وحدها ، لا تغني في المتعة الروحية بها قصة منها عن قصة ، وما ذاك إلا لاختلاف الدقائق والتفاصيل ، ولا يظهر هذه الدقائق والتفاصيل إلا قلمٌ بليغٌ ، بصير بمواقع الكلام ، عارف بأوجه الدلالة في الألفاظ ، له الحاسة الخفية التي يفاضل فيها بين الكلمات ويحسن انتقاءها ، إذ رب كلمتين بمعنى ، وبين إحداهما والأخرى مثل ما بين البلاغة والعي . ورب كلمة في لسان لها جو ولها مدلول ، وتحيط بها ذكريات عند أهل ذلك اللسان ، لا يمكن أن تجيء بها مرادفتها في اللسان الآخر ، ومن هنا علت بعض النصوص كالقرآن مثلا عن الترجمة واستحال أن تنقل إلى غير لغتها .

٢٤ ـ ٣١ ***

ونحن اليوم في أشبه العصور بعصر المنصور والمأمون ، أمة كانت معتزلة منطوية على نفسها ، ثم اتصلت بأمم غيرها لها مدنيات ولها علوم ، فإذا استمرت على عزلتها علت عليها تلك الأمم بعلمها وقويت ، وإن تعلمت ألسنتها لتفهم علومها ، أضاعت لسانها وعصبيتها : فلم يبق إلا أن تنقل كتب تلك الأمم إلى لسانها ، فتزداد به غنى في الأفكار وفي طرق التعبير ، ثم تفهمها وتسيغها وتهضمها كما يقولون ثم تنشئ مثلها إنشاء .

ونحن في الواقع لا نستغني عن الترجمة ولا نقل منها ، ولكنا نسيء الاختيار فندع الكتاب العبقري الفذ الذي يعد واحدا من مائة كتاب هي خلاصة آداب الأمم كلها ونترجم الكتاب لا فائدة فيه . ثم نسيء التعبير فلا ننقل هذه الكتب إلى العربية وإنما نضع في مكان ألفاظها الأعجمية ألفاظا عربية ، ولا يقدر على الترجمة الصحيحة إلا متمكن من اللغتين ، بليغ في اللسانين ، يقرأ الفقرة ثم يفهمها ثم يدعها تخالط روحه وتصير كأنها له ، ثم يعبر عنها بلسانه ، ويزينها بجمال بيانه .

* * *

والأستاذ الزيات يوجه كلامه إلى معالي الأستاذ السنهوري بك الذي عرفناه في بغداد ودمشق عالماً قبل أن نعرفه وزيرا . ونحن نعلم وجه الصواب في الأمر ولا نملك تحقيقه ، والوزراء على الغالب يملكون . ولا يعلمون . فلما جاء الوزير العالم الذي يعرف الحق ويقدر عليه ، كان موضع الأمل ، ومحل الرجاء ، فإذا ألهمه الله أن يفعل فقد أراد الخير لهذه الأمة على يديه .

بقيت كلمة للأستاذ الزيات ، هي أنه ترجم فكان أبرع المترجمين ، فلماذا لا يكمل ما بدأ به ، ويترجم لنا قصة (غرازيلا) ثم (جوسلان) ؟ وينتقل بعد ذلك إلى غير لامارتين من أمراء البيان ، وأئمة الأدب في كل لسان ؟ وما فيمن سيجمعهم معالي الوزير السنهوري فيما أظن من هو أقدر على ذلك من الزيات واولى به .

الجواب عندك يا أستاذنا !

(القاهرة) علي الطنطاوي